

Structural Transformations of Jewish Communities in Europe: From Ghetto Isolation to the Dilemma of Citizenship (Late Eighteenth to Late Nineteenth Century)

Mu'taz Radwan Ahmad Hmaidat *

mtrhmedat@gmail.com

Maisoun Mansour Obeidat **

bedatmavson@mutah.edu.jo

Received: 2/4 /2026

Accepted: 30/7 /2026

Abstract:

The issue of identity is among the most critical challenges accompanying the structural transformations of modern Europe, which redefined patterns of belonging and the relationship between individuals and the state, particularly for Jewish communities that transitioned from isolation to citizenship. This study analyzes those transformations since the eighteenth century and how they produced a complex identity crisis. It adopts a historical-analytical approach, tracing the transition from the ghetto system to legal emancipation and then to the modern nation-state, highlighting the contradiction between legal inclusion and social exclusion. The findings indicate that Jewish identity formed within structural isolation as a cohesive yet closed identity, which later fragmented with the Enlightenment and legal emancipation without the emergence of a stable alternative. This led to an identity crisis characterized by tension between religious affiliation and national belonging. Modern antisemitism and European nationalism reproduced exclusion despite the granting of citizenship rights, thereby deepening the structural nature of the crisis. The study recommends analytical approaches that move beyond single-factor explanations by emphasizing the interaction between structural and historical factors. It also calls for expanded comparative studies of identity crises in modern societies, contributing to a deeper understanding of the relationship between identity and the nation-state.

Keywords: antisemitism, ghetto, identity crisis, Jewish communities, structural transformations.

* Graduate Studies, Department of History, Mutah University, Karak, Jordan.

** Professor of History, Department of History, Mutah University, Karak, Jordan.



التحولات البنيوية للجماعات اليهودية في أوروبا: من عزلة "الجيتو" إلى معضلة المواطنة (أواخر القرن الثامن عشر -
أواخر القرن التاسع عشر)

معتز رضوان أحمد حميدات*

mtrhmedat@gmail.com

ميسون منصور عبيدات**

bedatmayson@mutah.edu.jo

تاريخ القبول: 2026/7/30

تاريخ الاستلام: 2026 /4/2

الملخص:

رافقت التحولات البنيوية في أوروبا الحديثة العديد من المشكلات والقضايا، ومن أبرزها إشكالية الهوية، حيث أعادت هذه التحولات تعريف أنماط الانتماء والعلاقة بين الفرد والدولة، ولا سيما في حالة الجماعات اليهودية التي انتقلت من العزلة إلى المواطنة. وتهدف هذه الدراسة إلى تحليل التحولات البنيوية التي شهدتها الجماعات اليهودية في أوروبا منذ القرن الثامن عشر، مع التركيز على الكيفية التي أسهمت بها هذه التحولات في إنتاج أزمة هوية.

اعتمدت الدراسة على المنهج التحليلي التاريخي، وذلك بنتبع الانتقال من مرحلة العزلة داخل نظام "الجيتو" إلى مرحلة التحرر القانوني، ثم إلى سياق الدولة القومية الحديثة، مع تحليل التناقض بين الإدماج القانوني والإقصاء الاجتماعي.

وتُظهر النتائج أنّ الهوية اليهودية تشكّلت في سياق العزلة البنيوية بوصفها هوية متماسكة لكنّها مغلقة، ثم تعرضت للتحكّم مع ظهور التنوير والتحرر القانوني دون أن يتم بناء بديل مستقر، مما أدى إلى نشوء أزمة هوية تمثلت في التوتر بين الانتماء الديني والانتماء القومي. كما تبين الدراسة أنّ معاداة السامية الحديثة والقومية الأوروبية أسهمت في إعادة إنتاج الإقصاء، رغم منح اليهود حقوق المواطنة، الأمر الذي عمّق هذه الأزمة وجعلها بنيوية.

وتوصي الدراسة بضرورة تبني مقاربات تحليلية تتجاوز التفسير الأحادي لأزمة الهوية، من خلال التفاعل بين العوامل البنيوية والتاريخية، وتوسيع الدراسات المقارنة لفهم أزمات الهوية في المجتمعات الحديثة، والعلاقة بين الهوية والدولة القومية.

الكلمات المفتاحية: أزمة الهوية، التحولات البنيوية، الجماعات اليهودية، الجيتو، معاداة السامية.

* كلية الدراسات العليا، قسم التاريخ، جامعة مؤتة، الكرك، الأردن.

**أستاذ دكتور التاريخ، قسم التاريخ، جامعة مؤتة، الكرك، الأردن.

المقدمة:

يُعَدُّ اختيار موضوع التحولات البنيوية للجماعات اليهودية في أوروبا، من عزلة "الجيتو" إلى معضلة المواطنة، مدفوعاً بكون هذا الموضوع يمثل حالة نموذجية لفهم كيفية إنتاج الدولة الحديثة لأزمات الهوية لدى الجماعات ذات الخصوصية الثقافية والدينية، إذ يتيح تتبع مسار كامل من العزلة القانونية المفروضة، مروراً بالتححرر الشكلي، وصولاً إلى إقصاء رمزي واجتماعي متجدد، بما يجعل الحالة اليهودية الأوروبية نموذجاً تحليلياً غنياً لفهم العلاقة الملتبسة بين المواطنة القانونية والانتماء الاجتماعي. وقد اعتمد البحث المنهج التاريخي التحليلي، القائم على تتبع التسلسل الزمني للتحولات البنيوية التي مرت بها الجماعات اليهودية، مع إخضاع هذا التسلسل لتحليل تفسيري يربط الأحداث والوقائع التاريخية بأطر نظرية سوسيولوجية وتاريخية معاصرة (كنظرية الحدود الاجتماعية عند بارث، ومفهوم الهوية السائلة عند باومان، ونظرية القومية بوصفها جماعة متخيلة عند أندرسون)، بهدف تجاوز السرد الوصفي للأحداث إلى تفسير العوامل البنيوية التي أنتجتها، وربطها بسؤال البحث المركزي المتعلق بنشأة أزمة الهوية اليهودية وتطورها.

ويقوم البحث على بناء تحليلي ضمن ثلاثة فصول مترابطة، يمثل كل فصل مرحلة من مراحل تطور الهوية اليهودية البنيوية: يتناول الفصل الأول "البنية التقليدية للجماعات اليهودية في أوروبا وتشكل الهوية في سياق العزلة" (مرحلة ما قبل الحداثة)، ويحلل العزلة داخل نظام "الجيتو" بوصفها الإطار الذي تشكلت فيه هوية مغلقة قائمة على التمايز والاستمرارية. ويتناول الفصل الثاني "التنوير والتحرر القانوني وإعادة تشكيل الهوية اليهودية" (مرحلة التنوير والتحرر القانوني)، ويحلل الانتقال من العزلة إلى المواطنة وما نتج عنه من تفكك في البنية التقليدية للهوية دون اندماج اجتماعي فعلي مقابل. أما الفصل الثالث "أزمة الهوية اليهودية وصعود التناقض البنيوي في أوروبا الحديثة" (مرحلة الأزمة)، فيحلل صعود القوميات الأوروبية ومعاداة السامية الحديثة بوصفهما آليتين لإعادة إنتاج الإقصاء، وما نتج عنهما من تعميق للتوتر الهوياتي وتحوله إلى أزمة بنيوية مركبة. وتختتم الدراسة بعرض النتائج والتوصيات المنبثقة عن هذا التحليل.

في أواخر القرن الثامن عشر، شهدت أوروبا تغييرات وتحولات بنيوية عميقة أعادت تشكيل أسس التنظيم الاجتماعي والسياسي فيها؛ إذ انتقلت تلك المجتمعات في أوروبا من أنماط التقليدية القائمة على الامتيازات الدينية والانتماءات المغلقة، إلى أنماط حديثة تركز على مفاهيم المواطنة، والمساواة القانونية، والفردانية (Giddens, 1991)، وقد كانت هذه التغييرات جذرية ولم تكن مجرد تغييرات مؤسسية سطحية، بل مثلت إعادة تعريف جذرية لمفهوم الانتماء ذاته، حيث لم يعد الانتماء يُبنى على أساس ديني أو طائفي، بل على أساس قومي وسياسي وثقافي. وفي قلب هذه التحولات، برز ما عُرف تاريخياً بـ "المسألة اليهودية"، التي تمحورت حول موقع اليهود داخل المجتمعات الأوروبية الحديثة، وحدود اندماجهم، وإشكالية قبولهم كمواطنين كاملين (Katz, 1973; Arendt, 1973).

الإطار النظري والدراسات السابقة:

إن فهم هذه الإشكالية يقتضي العودة إلى البنية التاريخية التي تشكلت فيها الهوية اليهودية، التي ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بنظام العزلة الذي عُرف بـ "الجيتو". فقد عاش اليهود في أوروبا لقرون طويلة ضمن أحياء مغلقة، فرضت عليهم قيوداً قانونية واجتماعية صارمة حدّت من حركتهم، ونشاطهم الاقتصادي، وتفاعلهم مع المجتمع الأوسع. ولم يكن الجيتو مجرد فضاء مكاني، بل كان بنية اجتماعية متكاملة أعادت تنظيم الحياة اليومية لليهود، من خلال مؤسسات دينية وتعليمية وقضائية خاصة، وهو ما ساهم في إنتاج هوية جماعية متماسكة قائمة على التمايز عن الآخر (Sorkin, 1996).

اختلفت التفسيرات حول طبيعة هذه العزلة؛ فبينما ترى بعض الدراسات أنها كانت أداة قمع وإقصاء كدراسة أريندت (Arendt, 1973)، في حين تشير دراسات أخرى (Katz, 1973) إلى أنها وفّرت إطارًا للحفاظ على الهوية والاستمرارية التاريخية. ففي بعض الحالات، أسهمت هذه العزلة في تقليل الاحتكاك المباشر الذي كان يؤدي إلى العنف في العصور الوسطى، مما جعلها أشبه بحل وسط بين الاندماج الكامل والطرده التام. ومن وجهة نظر سيوسولوجية جادل مورو (Morrow, 2005) بأنّ هذا الانفصال المكاني عمل على ضبط الصراع، إذ قلل من فرص التصادم الدموي الذي ميز العصور الوسطى. غير أنّ هذا الاستقرار النسبي كان مشروطاً باستمرار البنية التقليدية، وهو ما جعل الهوية اليهودية مرتبطة ديناميكياً وعضوياً بالعزلة ذاتها، وهذا ما أشار له لويس (Lewis, 1984).

إلا أنّ بارث (Barth, 1969) فسّر هذه العملية من خلال مفهوم الحدود الاجتماعية، الذي يرى أنّ الهوية تتشكل من خلال التمييز بين نحن وهم. وفي الهوية اليهودية، لم يكن هذا التمييز نابغاً من الداخل فقط، بل كان نتيجة مباشرة للإقصاء الخارجي، حيث تم تعريف اليهود بوصفهم جماعة مختلفة دينياً وثقافياً واقتصادياً. وقد ساهمت هذه العملية في بناء هوية قوية لكنّها مغلقة، تعتمد على الاستمرارية والتماسك الداخلي، لكنّها غير قادرة على التكيف مع التحولات المجتمعية الخارجية.

وتؤكد الدراسات السوسولوجية الحديثة استمرارية هذا الإطار التفسيري إلى ما بعد مرحلة التحرر القانوني بكثير؛ إذ تُظهر دراسة غروبيغل وبورسيل (Grobgeid & Bursell, 2021) حول الجماعات اليهودية المعاصرة في السويد أنّ الحدود الإثنية بالمعنى الذي طرحه بارث لا يزال يعاد إنتاجها ومقاومتها اليوم عبر آليات رمزية واجتماعية، رغم توفر المساواة القانونية الكاملة، وهو ما يدعم أطروحة هذه الدراسة القائلة بأنّ أزمة الهوية اليهودية بنيوية ومستمرة، لا مرحلية ومرتبطة بظرف تاريخي بعينه.

ومع ظهور الحداثة (عصر التنوير)، بدأت هذه البنية في التلاشي والتآكل، حيث دعت أفكار الحداثة إلى المساواة القانونية ودمج الأقليات داخل الدولة القومية. وقد تُرجم ذلك سياسياً في ما عُرف بتحرر اليهود، الذي منحهم حقوق المواطنة وأزال القيود القانونية المفروضة عليهم (Hyman, 1998) وقد مثّل هذا التحول نقطة مفصلية في تاريخ اليهود الأوروبيين، إذ انتقلوا من العزلة المفروضة إلى إمكانية الاندماج في المجتمع الأوسع.

إلا أنّ هذا الانتقال والاندماج لم يكن ناجحاً بالكامل إلى حدّ ما، بل اتضح وكشف عن تناقض بنيوي عميق. فقد استمر النظر إليهم كجماعة منفصلة أخرى غير مرغوب فيها ولا تنتمي إلى الأمة بالكامل، على الرغم من منحها حقوقاً قانونية، وتشير بعض الدراسات إلى أنّ التحرر لم يُنه الإقصاء، بل أعاد إنتاجه في شكل جديد، أكثر تعقيداً وأقل وضوحاً (Bauman, 1991)، وقد عبّر بعض المفكرين مثل برلين (Berlin) في مقاله الشهير "The Jewish Paradox"، عن هذه الحالة بوصفها جيتو غير مرئي (Invisible Ghetto) أو العزلة الرمزية، حيث لم تعد العزلة مفروضة قانونياً، لكنها استمرت رمزياً واجتماعياً.

أشار اندرسون (Anderson, 1983) إلى أنّ هذا التناقض تعمق مع صعود القوميات الأوروبية في القرن التاسع عشر، حيث أصبح الانتماء يُعرّف على أساس اللغة والثقافة والتاريخ المشترك. وفي هذا السياق، تم استبعاد اليهود من "الجماعة المتخيلة" للأمة، حتى وإن كانوا مواطنين قانونياً. وهنا تظهر إحدى أهم مفارقات الحداثة: فهي من جهة تدعو إلى المساواة، ومن جهة أخرى تنتج أنماطاً جديدة من الإقصاء تقوم على معايير قومية وثقافية.

وهناك العديد من العوامل التي أدت إلى تعميق أزمة الهوية اليهودية، ومنها معاداة السامية الحديثة؛ حيث لعبت دوراً محورياً في تعميق هذه الأزمة، فقد تحولت من خطاب ديني إلى خطاب عرقي وقومي، يعتبر اليهود عنصراً غير قابل للاندماج (Arendt, 1973؛ Mosse, 1978)، وقد أدى هذا التحول إلى إلغاء إمكانية الاندماج حتى في حال التخلي عن الخصوصية

الدينية، مما جعل الأزمة أكثر عمقاً وتعقيداً. وتشير دراسات منها باومان (Bauman) في كتابه العمدة (الحداثة والهولوكوست) (Modernity and the Holocaust) إلى أنَّ هذا النوع من العداء لم يكن مجرد بقايا من الماضي، بل كان جزءاً من بنية الحداثة ذاتها، التي أعادت تعريف الاختلاف بطرق جديدة. وبناءً على هذا المنظور فإنَّ أزمة الهوية اليهودية يأتي كتفاعل ثلاث قوى بنيوية رئيسة؛ العزلة التي أنتجت هوية متماسكة لكنها مغلقة، التحرر الذي فكك هذه الهوية دون أن يوفر بديلاً مستقرًا، وإعادة إنتاج الإقصاء في سياق الدولة القومية الحديثة.

وقد تناولت العديد من الدراسات هذه الجوانب بشكل منفصل؛ فقد ركزت بعض الدراسات على العزلة (Sorkin, 1996)، وأخرى على التحرر (Katz, 1973)، وثالثة على معاداة السامية (Arendt, 1973)، إلا أنَّ القليل منها حاول الربط بينها ضمن إطار تحليلي موحد يفسر كيف أدت هذه العوامل مجتمعة إلى إنتاج أزمة الهوية.

وتشير الدراسات حول الهوية؛ مثل كل من جينز (Giddens, 1991) في كتابه الحداثة والهوية الذاتية (Modernity and Self-Identity) وباومان (Bauman, 2004) صاحب مفهوم الحداثة السائلة (Liquid Modernity)، إلى أنَّ الهوية عملية ديناميكية تتشكل من خلال التفاعل المستمر بين الفرد والمجتمع، وليست مجرد انعكاس للبنية الاجتماعية، بل عملية تفاعلية مستمرة تعيد تشكيل ذاتها باستمرار من خلال العلاقة بين الفرد والمجتمع. وفي هذا السياق، يمكن فهم أزمة الهوية بوصفها حالة من اللايقين البنيوي، حيث يفقد الفرد القدرة على تحديد موقعه داخل النظام الاجتماعي، نتيجة لتناقض الرسائل والإشارات التي يتلقاها من البيئة المحيطة (Bauman, 2004).

مشكلة البحث:

رافقت التحولات البنيوية في أوروبا الحديثة العديد من المشكلات والقضايا، ومن أبرزها إشكالية الهوية، حيث أعادت هذه التحولات تعريف أنماط الانتماء والعلاقة بين الفرد والدولة، ولا سيما في حالة الجماعات اليهودية التي انتقلت من العزلة إلى المواطنة. يأتي هذا البحث ليعالج الفرضية المركزية التي تشير إلى أنَّ أزمة الهوية لدى الجماعات اليهودية في أوروبا لم تكن ظاهرة عرضية أو مرحلية، بل كانت نتيجة حتمية للتحولات البنيوية التي شهدتها أوروبا في العصر الحديث. كما يسعى البحث إلى تحليل التحولات البنيوية التي شهدتها الجماعات اليهودية في أوروبا منذ القرن الثامن عشر، مع التركيز على الكيفية التي أسهمت بها هذه التحولات في إنتاج أزمة هوية معقدة، وتسعى الدراسة إلى الإجابة عن السؤال الرئيس الآتي:

كيف أسهمت التحولات البنيوية في أوروبا في إنتاج أزمة الهوية لدى الجماعات اليهودية؟

الأسئلة الفرعية:

كيف ساهمت العزلة داخل نظام الحيتو في تشكيل هوية يهودية مغلقة؟

كيف أثر التحرر القانوني في تفكيك البنية التقليدية للهوية؟

كيف أعادت القومية الأوروبية ومعاداة السامية إنتاج الإقصاء؟

كيف أدى التفاعل بين هذه العوامل إلى نشوء أزمة الهوية؟

ما طبيعة العلاقة بين المواطنة القانونية والانتماء الاجتماعي في الحالة اليهودية؟

أهداف البحث:

يهدف البحث الحالي إلى تحليل التحولات البنيوية التي شهدتها الجماعات اليهودية في أوروبا منذ القرن الثامن عشر، مع التركيز على الكيفية التي أسهمت بها هذه التحولات في إنتاج أزمة هوية معقدة، كما يهدف إلى معالجة الفرضية المركزية التي تشير إلى أنَّ أزمة الهوية لدى الجماعات اليهودية في أوروبا لم تكن ظاهرة عرضية أو مرحلية، بل كانت نتيجة حتمية للتحولات البنيوية التي شهدتها أوروبا في العصر الحديث.

أهمية البحث:

تكمن أهمية هذا البحث في أنَّها لا تكتفي بوصف الظاهرة، بل تسعى إلى تقديم تفسير بنيوي لأزمة الهوية لدى الجماعات اليهودية في أوروبا، من خلال ربطها بالتحولات التي شهدتها المجتمعات الأوروبية الحديثة، وهو ما يسهم في تطوير الدراسات التاريخية عبر دمج التحليل السوسولوجي مع المعطيات التاريخية. كما توفر الدراسة إطاراً تحليلياً يمكن توظيفه لفهم أزمات الهوية في سياقات أخرى، مما يعزز من قيمتها العلمية والمعاصرة.

وتجدر الإشارة إلى أنَّ قيمة هذا البحث تكمن أساساً في طبيعته التركيبية والتحليلية، إذ يعتمد بشكل رئيس على إعادة قراءة وتنظيم مادة علمية موثقة في مصادر ومراجع سابقة ضمن إطار تفسيري بنيوي موحد، لا على إنتاج معطيات تاريخية أو أرشيفية جديدة بالكامل. وبهذا المعنى، فإنَّ أصالة الدراسة تكمن في زاوية التحليل والربط بين مستويات متعددة (العزلة، التحرر القانوني، القومية، معاداة السامية) ضمن تفسير بنيوي واحد، أكثر من كونها كشفاً عن معلومات غير معروفة سابقاً، وهو ما يجعلها ذات فائدة مباشرة للباحثين والدارسين المتخصصين بالموضوع ذاته والفترة الزمنية نفسها، بوصفها محاولة تركيبية تسهم في تنظيم حقل معرفي متناثر بين مصادر متعددة.

في ضوء العرض النظري والدراسات السابقة وأهمية الدراسة وأسئلتها، تتبنى هذه الدراسة خريطة مفاهيمية تحليلية تهدف إلى تفسير العلاقة بين التحولات البنيوية في أوروبا وأزمة الهوية لدى الجماعات اليهودية. وتُظهر هذه الخريطة كيفية تفاعل العزلة البنيوية، والتحرر القانوني، وإعادة إنتاج الإقصاء في إنتاج حالة مركبة من التوتر الهوياتي.

جدول (1): الخريطة المفاهيمية التحليلية لتفسير أزمة الهوية اليهودية

المفهوم الرئيس	دوره في تفسير الظاهرة	نوعه في الدراسة	التعريف التحليلي	علاقته بالمفاهيم الأخرى	المرجع
العزلة البنيوية (الحيثية)	نقطة البداية في تشكّل الهوية	إطار تاريخي	نظام اجتماعي مغلق فرض على اليهود، أدى إلى تمايزهم عن المجتمع الأوروبي	ينتج هوية مغلقة	المسيحي، 1999؛ Barth, 1969
الهوية المغلقة	تمثل البنية التقليدية للهوية	مفهوم تحليلي	هوية قائمة على الانغلاق والتميّز نتيجة العزلة الطويلة	تتفكك مع التنوير	الشامي، 2000
التحرر القانوني	عامل تفكيك للبنية التقليدية	تحول تاريخي	منح اليهود حقوق المواطنة في إطار التنوير الأوروبي	يؤدي إلى زعزعة الهوية	Katz, 1973؛ Giddens, 1991

Bauman, 1991	ينتج حالة عدم استقرار	انهيار التوازن القديم للهوية بعد زوال الجيتو	مرحلة انتقالية	مرحلة وسيطة نحو الأزمة	تفكك الهوية التقليدية القومية الأوروبية
Anderson, Gellner, 1983	يستبعد اليهود رمزياً	إعادة تعريف الانتماء على أساس ثقافي وقومي	سياق بنيوي	يعيد إنتاج الإقصاء	
Arendt, 1973 Mosse, 1978	يعزز الإقصاء الاجتماعي	خطاب أيديولوجي يقدم اليهود كعنصر غير قابل للاندماج	آلية إقصاء	يعمق الأزمة	معاداة السامية الحديثة
المسيري، 2002	يربط بين التنوير والأزمة	استمرار رفض اليهود رغم المواطنة القانونية	مفهوم تفسيري	الحلقة المركزية في الأزمة	إعادة إنتاج الإقصاء أزمة الهوية
Jenkins, 2008	نتاج تفاعل جميع العوامل	حالة التوتر بين الانتماء الديني والانتماء القومي	الظاهرة المدروسة	النتيجة النهائية	

من إعداد الباحث.

الفصل الأول: البنية التقليدية للجماعات اليهودية في أوروبا وتشكل الهوية في سياق العزلة (مرحلة ما قبل الحداثة)

إن فهم التحولات البنوية التي طرأت على الهوية اليهودية يتطلب دراسة أوضاع الجماعات بداية في أوروبا قبل عصر التنوير؛ والذي يعتبر مدخلاً تفسيريًا ضروريًا لفهم التحولات البنوية التي طرأت لاحقًا على هويتهم في العصر الحديث، لذلك لا يمكن تحليل أزمة الهوية اليهودية التي برزت بوضوح في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر دون العودة إلى الإطار التاريخي والاجتماعي الذي تشكلت فيه هذه الجماعات عبر قرون طويلة من العزلة والقيود المركبة. فهذه الهوية لم تتكوّن في فراغ، بل نشأت ضمن سياق تاريخي اتسم بتداخل الضغوط الخارجية التي فرضتها المجتمعات الأوروبية المسيحية، مع آليات داخلية طوّرتها الجماعات اليهودية للحفاظ على تماسكها واستمراريتها (المسيري، 1999؛ كنعان، 1980).

أُعتبر الجيتو نظامًا بنويًا مؤسسيًا متكاملًا؛ إذ إنه يتجاوز مفهوم الحي السكني المنعزل الضيق، فلا يمكن اختزاله، بل هو إطار بنيوي شامل يعكس طبيعة العلاقة غير المتكافئة بين اليهود والمجتمع الأوروبي. فمنذ العصور الأولى فرضت السلطات الأوروبية على اليهود الإقامة في أحياء فيزيائية محددة تخضع لرقابة صارمة، وتُفرض عليها قيود متعددة تتعلق بالحركة، والعمل، والاندماج الاجتماعي، الأمر الذي أدى إلى تكريس عزلة شبه كاملة، وحول الجماعات اليهودية إلى كيانات منفصلة نسبيًا عن النسيج الاجتماعي العام (الشامي، 1997؛ بدوي، دون تاريخ).

توضيحًا لهذه المسألة، تشير المصادر التاريخية إلى أن العزلة المكانية كانت في الأساس نتاج قيود قانونية واجتماعية فرضتها السلطات الأوروبية على اليهود، وليست تعبيرًا عن ميل "طبيعي" أو عرقي نحو الانعزال؛ أما الممارسات الدينية والمجتمعية الداخلية التي طوّرتها الجماعات اليهودية لاحقًا، فتُفهم على أنها استجابة لظروف العزلة المفروضة، أسهمت في الحفاظ على التماسك الداخلي ضمن الإطار الذي أنتجته هذه القيود، لا كسبب له (الشامي، 1997؛ المسيري، 1999).

وقد تبنت أزمة الهوية والعزلة اليهودية عدة اتجاهات، ففي الوقت الذي حملت في داخلها مفارقة بنيوية عميقة، لكنّها في الوقت ذاته مثّلت فيه أداة للإقصاء الخارجي، حيث كانت في الوقت ذاته إطاراً لإعادة إنتاج التماسك الداخلي، فقد تطور داخل الجيتو نمطاً خاصاً من الحياة الاجتماعية، اتسم بوجود مؤسسات دينية وتعليمية وتنظيمات جماعية أدت دوراً مركزياً في الحفاظ على البنية الاجتماعية للجماعة. ولم تكن هذه المؤسسات مجرد أدوات تنظيمية، بل كانت مُثَلَّة للمعنى والهوية، حيث أسهمت في نقل القيم والتقاليد عبر الأجيال، وإعادة إنتاج الوعي الجمعي لهذه الجماعة (المسيري، 1999). وبهذا المعنى، لم تكن هذه المؤسسات نتاجاً عرضياً للعزلة، بل آلية تعويضية بنيوية: كلما ضاقت فرص التفاعل مع المحيط الخارجي، اتسع الاعتماد على البنية الداخلية لإنتاج المعنى والاستقرار، وهو نمط سيتكرر — بصورة معكوسة — حين يفضي التحرر القانوني لاحقاً إلى إضعاف هذه المؤسسات دون أن يوفر بديلاً مكافئاً.

شكّلت العقيدة الدينية الإطار العام الذي تأسست عليه الهوية اليهودية، من خلال سردية دينية-تاريخية مركبة تربط البعد الروحي بالتاريخي عبر مفهوم "الشعب المختار" و"أرض الميعاد". وتكمن الأهمية البنيوية لهذه السردية في كونها مصدراً للهوية مستقلاً عن الاعتراف الخارجي أو الوضع القانوني للجماعة، أي أنّها وفّرت أساساً للاستمرارية الذاتية لا يتوقف على قبول المجتمع المضيف أو رفضه. وهذا الاستقلال النسبي هو ما يفسّر قدرة الجماعات اليهودية على الحفاظ على تماسكها عبر قرون من التشتت الجغرافي والنفور المجتمعي، لكنّه في الوقت ذاته أرسى، منذ وقت مبكر، ثنائية بين مصدر داخلي للهوية (السردية الدينية) ومصدر خارجي لتحديد الوضع الاجتماعي والقانوني (موقف المجتمع المضيف)، وهي الثنائية التي ستتحول، كما سيتضح في الفصلين الثاني والثالث، إلى جوهر أزمة الهوية الحديثة (طربين، دون تاريخ؛ شلبي، دون تاريخ).

لم تكن تجارب الاضطهاد والطرّد المتكررة التي واجهتها الجماعات اليهودية في إنجلترا (1290)، وفرنسا (على مراحل متعددة)، وإسبانيا (1492) أحداثاً منفصلة أو عرضية، بل شكّلت نمطاً بنيوياً متكرراً يكشف عن الوظيفة المزدوجة التي شغلها اليهود في الاقتصاد السياسي الأوروبي: الاستفادة الاقتصادية منهم في أوقات الحاجة، ثم التخلص منهم أو مصادرة أموالهم عند اشتداد الأزمات المالية أو السياسية للحكم. وهذا التكرار عبر سياقات جغرافية وزمنية متباينة هو ما يفسّر لماذا لم يستقر الوعي الجمعي اليهودي عند حادثة بعينها، بل تشكّل حول فكرة الاضطهاد بوصفها احتمالاً بنيوياً دائماً لا استثناءً عارضاً. فالتفاعل بين هذا النمط المتكرر من الطرد والسردية الدينية القائمة على التيه والشتات هو ما أنتج، تراكمياً، وعياً جمعياً بعدم الاستقرار سبق أزمة الهوية الحديثة بقرون، ومهد لها بنيوياً (الوكيل، دون تاريخ؛ مظهر، دون تاريخ).

وقد أدى هذا الواقع إلى أنتشار وتشتت الجماعات اليهودية في مناطق متعددة، وانقسامهم إلى مجموعات رئيسية، أبرزها (السفارديم والأشكناز)¹، وهو ما انعكس على البنية الثقافية والاجتماعية، وأسهم في تنوع أنماط التعبير عن الهوية، مع الحفاظ في الوقت ذاته على إطار رمزي مشترك يجمع هذه الجماعات (المسيري، 1999). وهذا التنوع لم يكن دليلاً على التفكك، بل على قدرة الهوية على التكيف ضمن حدود العزلة.

¹ السفارديم: يهود ذوو أصول إسبانية وبرتغالية ومتوسطة، تشكّلت هويتهم الثقافية واللغوية في ظل الأندلس والعالم الإسلامي قبل طردهم من إسبانيا عام 1492م. الأشكناز: يهود ذوو أصول أوروبية وسطى وشرقية (ألمانيا وبولندا وروسيا بشكل رئيس)، طوّروا لغتهم الخاصة (اليديشية) وتقاليدهم الدينية والثقافية المتميزة عن نظرائهم السفارديم (المسيري، 1999).

ومن جهة أخرى، أسهمت القواعد الدينية والاجتماعية في تعزيز هذا الانفصال، حيث فرضت الشريعة اليهودية منظومة دقيقة من الضوابط التي نظمت الحياة اليومية، مثل قوانين الطعام (الكاشروت)، وتحريم الزواج المختلط، إضافة إلى الطقوس الجماعية التي عززت الروابط الداخلية. وقد ساهمت هذه الممارسات في الحفاظ على التماسك، لكنها في الوقت ذاته حذت من فرص الاندماج في المجتمعات الأوروبية (بدوي، دون تاريخ). وتكشف هذه الازدواجية — الضوابط ذاتها التي حصنت التماسك الداخلي هي ما قيد الانفتاح الخارجي — عن مفارقة بنيوية ستلازم الجماعات اليهودية بعد التحرر القانوني أيضًا، إذ لا يكفي رفع القيود الخارجية لإنتاج اندماج فعلي ما دامت آليات التمايز الداخلي قائمة.

كما لعبت الصورة النمطية التي كوّنتها المجتمعات الأوروبية عن اليهود دورًا مهمًا في تعميق العزلة، حيث ارتبط اليهود في المخيلة الأوروبية بمهن محددة، مثل الصيرفة والربا، نتيجة القيود التي فرضت عليهم ومنعتهم من امتلاك الأراضي أو ممارسة العديد من الحرف. وقد أسهمت هذه الصورة في تعزيز مشاعر العدا، وتحويل اليهود إلى "آخر" ثقافي واجتماعي، الأمر الذي زاد من صعوبة اندماجهم (الروسان، 1983؛ السعد، دون تاريخ؛ Mosse, 1978).

بلغت هذه العزلة ذروتها في بعض الحالات في شكل اضطهاد ممنهج، كما حدث في إسبانيا والبرتغال خلال محاكم التفتيش، حيث تعرض اليهود، وعلى نحو لافق المتنصرون منهم (Conversos) الذين اعتنقوا المسيحية رسميًا، لملاحقات قاسية بلغت حد الإعدام أو الطرد. وتكمن الدلالة البنيوية لهذه الواقعة في أنّ التحول الديني الكامل لم يكن كافيًا لإسقاط صفة "اليهودي" عن حامله، أي أنّ الإقصاء استهدف انتماءً نسبيًا أو تصنيفًا متجذرًا يتجاوز حدود المعتقد الفعلي. وهذا النمط — إقصاء يصمد أمام محاولات الاندماج الكامل — هو ما يفسّر جزئيًا لماذا لم يفلح التحرر القانوني اللاحق، ولا حتى التخلي عن الخصوصية الدينية، في حل معضلة الاندماج، كما سيتضح في الفصل الثالث عند تناول معاداة السامية العرقية الحديثة (عبد الرحمن، دون تاريخ).

إلا أنّ بعض الدراسات كدراسة كوهين (Cohen, 1994) ودراسة غوتين (Goitein, 1999) تشير إلى أنّ أوضاع اليهود في الحضارة الإسلامية كانت مختلفة نسبيًا، إذ تمتعوا بدرجة جيدة من الحماية القانونية وحرية ممارسة الشعائر، مما أتاح لهم قدرًا من الاستقرار والازدهار الثقافي، كما يظهر في تجربة موسى بن ميمون، وهو ما يعكس اختلاف السياقات الحضارية وتأثيرها في تشكيل الهوية.

وتُظهر الدراسات المتخصصة في هذا الجانب أنّ اليهود في ظل الحضارة العربية الإسلامية، ولا سيما في الأندلس، تمتعوا بمكانة قانونية محمية بوصفهم أهل ذمة، وهو ما وفر لهم حماية دينية وقانونية نسبية، وحرية في ممارسة شعائرهم وإدارة شؤونهم الداخلية، مقابل التزامات محددة كدفع الجزية. وقد أتاح هذا الإطار، وإن لم يكن مساواة كاملة بالمعنى الحديث للمواطنة، هامشًا واسعًا من الاستقرار والازدهار الثقافي والعلمي، تجلّى في إسهامات علمية وفكرية بارزة، أبرزها تجربة موسى بن ميمون الذي شغل مناصب طبية وفكرية رفيعة، وتجربة الوزير سموئيل بن نغريلة في غرناطة. وقد اعتبر عدد من الباحثين هذه الحقبة، وخاصة في الأندلس، من أزهى الفترات التي عاشتها الجماعات اليهودية عبر تاريخها، لما وفرته من مناخ ثقافي منفتح نسبيًا بالمقارنة مع أوضاعهم في أوروبا المسيحية في الفترة ذاتها (Cohen, 1994; Menocal, 2002; Goitein, 1999).

وعلى الرغم من هذا التباين، والاختلاف في التعايش، فإنّ التجربة الأوروبية هي المحدد والتي أدت دورًا محوريًا في تشكيل ملامح الهوية اليهودية الحديثة، نظرًا لما اتسمت به من تداخل معقد بين العزلة والاضطهاد من جهة، ومحاولات التكيف والبقاء من جهة أخرى. فقد دفعت هذه الظروف الجماعات اليهودية إلى تطوير استراتيجيات متعددة للحفاظ على هويتها، تراوحت بين

الانغلاق النسبي والانفتاح الحذر، وهو ما أسهم في تكوين بنية هوياتية مركبة تجمع بين التماسك الداخلي والتوتر مع الخارج، ومن خلال التحليلات التفسيرية لوضعية الجماعة اليهودية فقد ساعدت عدة عوامل على تشكيل الهوية ومنها الآتي:

العزلة بوصفها آلية لإنتاج الهوية: تُظهر التحليلات السوسولوجية أنَّ العزلة لا تؤدي بالضرورة إلى تفكك الجماعات، بل قد تسهم في إنتاج أشكال متماسكة من الهوية، خاصة عندما تقترن بوجود مؤسسات داخلية قوية تنظم حياة الأفراد. وفي حالة الجماعات اليهودية، تحولت العزلة إلى آلية فاعلة في إعادة إنتاج الهوية، حيث أسهمت في ترسيخ منظومة قيمية قائمة على الاستمرارية والانتماء الديني (المسيري، 1999). ويمكن تفسير هذه العملية من خلال مفهوم "الحدود الاجتماعية" (Barth, 1969)، حيث تتشكل الهوية من خلال التمييز المستمر بين الجماعة والآخر. وفي الحالة اليهودية، لم يكن هذا التمييز اختياريًا، بل كان مفروضًا من الخارج، إلا أنه مع مرور الزمن أصبح جزءًا من البناء الداخلي للهوية.

التماسك الداخلي وإشكالية الانغلاق: أشار كنعان (1980) على الرغم من أنَّ العزلة أسهمت في إنتاج هوية متماسكة، إلا أنَّ هذا التماسك حمل في داخله إشكالية الانغلاق، حيث أصبحت الهوية أقل قدرة على التفاعل مع التغيرات البنوية. فهذا الانغلاق تحول إلى نمط تفكير، يعيد إنتاج نفسه عبر الأجيال.

الدور الاقتصادي في إعادة إنتاج العزلة: لعب العامل الاقتصادي دورًا مهمًا في ترسيخ العزلة، حيث أدى حصر اليهود في مهن محددة إلى تعزيز الصور النمطية، وهو ما ساهم في إعادة إنتاج الإقصاء (الروسان، 1983؛ Mosse, 1978).
الهوية المغلقة كشرط سابق للأزمة: تشير التحليلات إلى أنَّ الهوية التي تشكلت في سياق العزلة لم تكن قادرة على التكيف مع التحولات الحديثة، وهو ما مهد لظهور أزمة الهوية لاحقًا (Giddens, 1991).

ومن خلال الطرح السابق، يتضح أنَّ الهوية اليهودية لم تكن مجرد هوية دينية، بل كانت بناءً اجتماعيًا تشكل في سياق العزلة البنوية، وأنَّ هذه العزلة، رغم دورها في إنتاج التماسك، كانت في الوقت ذاته الأساس البنوي لأزمة الهوية التي ظهرت لاحقًا.

الفصل الثاني: التنوير والتحرر القانوني وإعادة تشكيل الهوية اليهودية:

اعتُبر القرن الثامن عشر نقطة مفصلية تحولية في التاريخ الأوروبي خاصة على الأقليات والجماعات، ومن ضمنهم الجماعات اليهودية، التي وجدت نفسها أمام فرصة تاريخية للخروج من دائرة العزلة القانونية والاجتماعية التي فرضها نظام الجيتو، والدخول في إطار الدولة الحديثة بوصفها جماعة مواطنة. فظهور حركة التنوير والتي توصف بأنها مشروعًا فكريًا شاملاً في القرن الثامن عشر، سعى إلى إعادة تنظيم المجتمع وبناء أسس جديدة تقوم على العقلانية، والمساواة، وحقوق الفرد، وهو ما أدى إلى زعزعة البنى التقليدية التي حكمت العلاقات الاجتماعية والسياسية لقرون طويلة (Giddens, 1991؛ المسيري، 1999). وقد انعكست كافة التحولات في هذه الفترة بشكل مباشر على وضع الأقليات، وفي مقدمتها الجماعات اليهودية، غير أنَّ هذا الانتقال لم يكن بسيطًا أو خطيًا، بل كان محملاً بتناقضات عميقة، إذ لم يؤدِّ التحرر القانوني إلى اندماج فعلي، بل أعاد إنتاج الإشكالية في مستوى أكثر تعقيدًا، تمثل في التوتر بين الإدماج القانوني والإقصاء الاجتماعي. ومن هنا، فإنَّ هذه المرحلة لا تمثل نهاية العزلة، بل إعادة تشكيلها في صيغة جديدة، أكثر خفاءً وأشد تأثيرًا في بنية الهوية (Bauman, 1991).

التنوير وإعادة تعريف المواطنة والانتماء :

جاءت أفكار التنوير كرد فعل على الأنظمة التقليدية التي كانت تقوم على الامتيازات الدينية والتراتبية الاجتماعية، حيث دعت إلى المساواة بين الأفراد بصرف النظر عن انتماءاتهم الدينية أو الطائفية. وقد أدى هذا التحول إلى طرح سؤال جوهري يتعلق بموقع اليهود داخل المجتمع الحديث: هل يمكن اعتبارهم مواطنين متساوين، أم أنهم يمثلون جماعة دينية-ثقافية لا يمكن دمجها بالكامل؟ (Katz, 1973؛ الشامي، 1997). وقد شكّل هذا السؤال نقطة الانطلاق لما عُرف لاحقاً بـ"المسألة اليهودية"، التي لم تكن مجرد نقاش سياسي، بل كانت تعبيراً عن أزمة أعمق تتعلق بتعريف الهوية والانتماء في سياق الدولة الحديثة. فالمواطنة، في إطارها التنويري، تقوم على فكرة الفرد المجرد، بينما كانت الهوية اليهودية قائمة على جماعة دينية ذات خصوصية واضحة، وهو ما خلق تناقضاً بنيوياً بين النموذجين (Jenkins, 2008).

وقد تجلّى هذا التحول بوضوح مع الثورة الفرنسية عام 1789، التي أعلنت مبادئ الحرية والمساواة، ومنحت اليهود حقوق المواطنة الكاملة عام 1791، لتصبح فرنسا أول دولة أوروبية تكسر الإطار القانوني التقليدي الذي كان يقيد وجودهم (Hyman, 1998؛ المسيري، 1999). قد تبعت دول أوروبية أخرى هذا المسار تدريجياً، مما أدى إلى انتهاء نظام الجيتو رسمياً، وفتح المجال أمام اليهود للمشاركة في الحياة العامة.

وتستند هذه المرحلة فكرياً إلى مقدمات تأسيسية سبقت الثورة بعقد كامل، أبرزها أطروحة المفكر الألماني دوم (Dohm, 1781) في مؤلفه "في تحسين الوضع المدني لليهود"، التي دعت إلى ربط "عيوب" اليهود المزعومة بالظروف القانونية القمعية المفروضة عليهم لا بطبيعتهم، وهو طرح مهّد فكرياً لمسار التحرر القانوني. وقد ترجم هذا التوجه سياسياً في وثيقة إعلان حقوق الإنسان والمواطن (1789)، التي أرست مبدأ المساواة أمام القانون دون أن تُطبّق فوراً على اليهود، ثم في قرار الجمعية الوطنية الفرنسية الصادر في 27 أيلول/سبتمبر 1791، الذي منح اليهود الأشكناز في الألزاس واللورين صفة "المواطن الفاعل" كاملة. وقد عبّر الكونت كليرمون-تونير (Clermont-Tonnerre) عن المنطق الكامن خلف هذا التحرر بعبارته الشهيرة أمام الجمعية الوطنية في 23 كانون الأول/ديسمبر 1789: "يجب أن يُحرم اليهود من كل شيء بوصفهم أمة، وأن يُمنحوا كل شيء بوصفهم أفراداً"، وهي العبارة التي تختصر جوهر التناقض البنيوي الذي تتناوله هذه الدراسة بين الإدماج الفردي القانوني والإقصاء الجماعي المستمر (Sorkin, 2019).

غير أنّ هذا التحول القانوني لم يكن كافياً لإحداث اندماج فعلي، إذ استمر المجتمع في إنتاج تصورات ثقافية سلبية عن اليهود، مما أدى إلى بقاء الحواجز الاجتماعية قائمة رغم زوال القيود القانونية. وهنا يظهر ما يسميه باومان (Bauman, 1991) بـ"الحداثة المزدوجة"، حيث يتم الاعتراف بالفرد قانونياً، لكنه يُرفض رمزياً وثقافياً.

الهسكله وإعادة صياغة الهوية من الداخل:

سعت الجماعة اليهودية إلى إعادة صياغة الهوية اليهودية بما يتوافق مع متطلبات الحداثة. ونتيجة لذلك فقد ظهرت حركة التنوير اليهودية (الهسكله) استجابة داخلية لهذه التحولات، ويعتبر موسى مندلسون من أبرز رواد هذه الحركة، إذ دعا إلى التوفيق بين الانتماء الديني والانتماء المدني، من خلال إعادة تفسير الدين اليهودي بصورة عقلانية، والانفتاح على الثقافة الأوروبية (كنعان، 1980؛ Sorkin, 1996). وقد تمثلت هذه الرؤية في الدعوة إلى إصلاح التعليم، واعتماد اللغات الأوروبية، والانخراط في الحياة الثقافية الحديثة، وهو ما أدى إلى ظهور طبقة يهودية جديدة تسعى إلى الاندماج في المجتمع. غير أنّ هذه

العملية لم تكن مجرد تحول ثقافي، بل كانت محاولة لإعادة تعريف الذات، والانتقال من هوية جماعية مغلقة إلى هوية فردية-مدنية.

إلا أن هذه المحاولة واجهت تحديات مزدوجة؛ فمن جهة، عارضتها التيارات الدينية التقليدية التي رأت فيها تهديدًا للهوية، ومن جهة أخرى، لم تنجح في إزالة الشكوك التي كانت تحيط باليهود في المجتمعات الأوروبية. وهذا ما يكشف عن حدود مشروع الاندماج، الذي لم يكن يعتمد فقط على إرادة اليهود، بل على قبول المجتمع أيضًا (Gellner, 1983).

التناقض بين الاندماج والإقصاء :

ظهر وصف "الآخر" من قبل المجتمع الأوروبي كشكل من أشكال الإقصاء، بالرغم من الجهود المبذولة من اليهود لتحقيق الاندماج، إلا أن الواقع الأوروبي شهد استمرارًا، بل تزايدًا، في أشكال الإقصاء. فقد أعادت القوميات الأوروبية تعريف الإنتماء على أساس اللغة والثقافة والتاريخ المشترك، وهو ما أدى إلى استبعاد اليهود بوصفهم "آخر" داخل الأمة (Anderson, 1983). وقد تعمق هذا التناقض مع ظهور معاداة السامية الحديثة، التي لم تعد قائمة على الاختلاف الديني، بل على تصورات عرقية وثقافية تعتبر اليهود عنصرًا غير قابل للاندماج (Arendt, 1973؛ Mosse, 1978)، وقد أدى هذا التحول إلى إلغاء إمكانية الاندماج حتى في حال التخلي عن الخصوصية الدينية، مما جعل الأزمة أكثر تعقيدًا. كما ساهمت العوامل الاقتصادية والسياسية في تعزيز هذه الصورة، حيث ارتبط اليهود بأنشطة اقتصادية معينة، وأصبحوا هدفًا للاتهامات في أوقات الأزمات. ويشير (الروسان، 1983) إلى أن هذه التصورات لم تكن عفوية، بل كانت جزءًا من بنية اجتماعية أعادت إنتاج الإقصاء.

أزمة الهوية والاندماج والبحث عن البدائل:

في ظل هذه التناقضات، بدأت الجماعات اليهودية تعيش حالة من التردد بين اتجاهين متناقضين: الأول يدعو إلى الاندماج الكامل والتخلي عن الخصوصية، والثاني يتمسك بالهوية الدينية ويرفض الذوبان. وقد أدى هذا التوتر إلى انقسام داخلي، وظهور تيارات فكرية متعددة، تعكس محاولة فهم الواقع الجديد والتكيف معه. ويشير (المسيري، 1999) إلى أن هذا الانقسام يعكس أزمة عميقة في تعريف الذات، حيث لم تعد الهوية قادرة على التوفيق بين متطلبات الحداثة والانتماء التقليدي. من وجهات النظر يمكن فهم هذه الأزمة بوصفها نتيجة لما يسميه (Giddens, 1991) "تفكك الهويات التقليدية"، حيث تؤدي التحولات البنيوية إلى زعزعة الأسس التي قامت عليها الهوية، دون أن توفر بديلاً مستقرًا. وهذا ما ينطبق على الحالة اليهودية، حيث تم تفكيك هوية الجيتو دون بناء هوية حديثة متماسكة.

مع تزايد خيبة الأمل من فشل الاندماج، خاصة في ظل موجات العنف في روسيا خلال ثمانينيات القرن التاسع عشر، بدأت تظهر اتجاهات جديدة تدعو إلى البحث عن حلول بديلة، مثل الهجرة أو إقامة كيان سياسي مستقل (بنسكر؛ سمولنسكين). وقد مثلت هذه الاتجاهات بداية تحول نوعي في طبيعة الهوية، حيث لم تعد مسألة دينية فقط، بل أصبحت مسألة سياسية وقومية. وهذا التحول يعكس انتقال الأزمة من مستوى اجتماعي إلى مستوى بنوي أعمق، يتعلق بإعادة تعريف موقع الجماعة في العالم (Smolenskin, 1875؛ Pinsker, 1882).

نرى أن عصر التنوير لم يُسهم إسهامًا مباشرًا في حل مسألة اليهودية، وحل أزمة اليهودية لديها، بقدر ما أعاد إنتاجها في صيغة أكثر تعقيدًا، حيث انتقل اليهود بين اتجاهين؛ عزلة قانونية واضحة إلى وضع أكثر إشكالية يتمثل في التعايش بين المواطنة القانونية والإقصاء الاجتماعي. وقد أدى هذا التناقض إلى نشوء أزمة هوية بنيوية، تمثلت في صعوبة التوفيق بين الانتماء الديني

ومتطلبات الدولة القومية الحديثة. وبذلك، فإنّ هذه المرحلة لا تمثل نهاية العزلة، بل تحولها من شكل مادي مباشر إلى شكل رمزي وثقافي أكثر عمقاً، وهو ما مهّد لتفاهم أزمة الهوية في المراحل اللاحقة، كما سيتضح في الفصل الثالث.

الفصل الثالث: أزمة الهوية اليهودية وصعود التناقض البنيوي في أوروبا الحديثة

يمثل الانتقال من العزلة التقليدية داخل نظام "الجيتو" إلى فضاء المواطنة الحديثة أحد أكثر التحولات البنيوية تعقيداً في تاريخ الجماعات اليهودية في أوروبا، إذ لم يؤدّ هذا الانتقال إلى تحقيق اندماج فعلي ومستقر، بل أفضى إلى نشوء حالة مركبة من التوتر البنيوي بين الانتماء القانوني والانتماء الاجتماعي. فقد وجد اليهود أنفسهم، مع نهاية القرن التاسع عشر، أمام مفارقة حادة: هم مواطنون من الناحية القانونية، لكنهم ظلوا موضع شك وإقصاء من الناحية الثقافية والاجتماعية، الأمر الذي أدى إلى تفكك التوازن التقليدي الذي كانت تقوم عليه هويتهم داخل الجيتو، دون أن يتمكنوا من بناء بديل هوياتي مستقر داخل الدولة القومية الحديثة (المسيري، 1999؛ الشامي، 1994؛ Giddens, 1991).

من الاندماج القانوني إلى الإقصاء البنيوي:

استقر في الفصل السابق أنّ مشروع التنوير أتاح لليهود خروجاً قانونياً من العزلة، دون أن يوفر اندماجاً اجتماعياً فعلياً، بفعل إعادة تعريف الدولة الحديثة للانتماء على أسس قومية وثقافية أقصت اليهود رمزياً رغم مواظمتهم القانونية. وينتقل هذا الفصل من رصد هذا التناقض إلى تفسير الآلية التي حولته من إقصاء ثقافي عام إلى نسق أيديولوجي متكامل، هو معاداة السامية الحديثة (Anderson, 1983؛ Gellner, 1983).

ويشير المسيري (2002) إلى أنّ هذا التناقض يعكس طبيعة "الجماعة الوظيفية"، حيث يتم توظيف اليهود اقتصادياً داخل المجتمع، مع الإبقاء على مسافة رمزية تفصلهم عنه. وهذا ما يفسر استمرار الإقصاء رغم منح الحقوق، إذ لم يكن الرفض موجهاً إلى الأفراد بقدر ما كان موجهاً إلى الجماعة بوصفها كياناً مختلفاً. كما يؤكد بشارة (1998) أنّ الدولة القومية بطبيعتها تميل إلى إنتاج "آخر داخلي"، يتم تعريفه بوصفه غير منسجم مع الهوية الوطنية، وهو ما ينطبق على الحالة اليهودية، حيث ظل اليهود يُنظر إليهم كجماعة مزدوجة الانتماء، تجمع بين المواطنة والانفصال الثقافي.

معاداة السامية الحديثة كآلية لإعادة إنتاج الأزمة:

تجدر الإشارة، قبل تناول هذا المفهوم، إلى أنّ مصطلح "معاداة السامية" (Antisemitismus بالألمانية) لا يعني معاداة "السامية" بوصفها انتماءً لغوياً واسعاً يشمل شعوباً عديدة غير اليهود، بل صيغ عمداً، حين استخدمه فلهم مار نفسه عام 1879، ليكون تسمية علمية الطابع للعداء لليهود تحديداً، بما يميّزه عن العداء الديني التقليدي لليهود (المعروف تاريخياً بالألمانية باسم Judenhass، أي "كراهية اليهود")، الذي ساد أوروبا منذ العصور الوسطى على أساس ديني — رفض اليهود اعتناق المسيحية — وكان بالإمكان نظرياً تجاوزه عبر التحول الديني، وإن لم يكن ذلك مضموناً عملياً كما بيّنت واقعة المتتصرين (Conversos) في محاكم التفتيش (الفصل الأول). أما "معاداة السامية الحديثة" فتتمثل قطيعة نوعية مع هذا النمط الديني: شكّلت معاداة السامية الحديثة أحد أهم العوامل التي ساهمت في تعميق أزمة الهوية، إذ لم تعد مجرد امتداد للعداء الديني التقليدي، بل تحولت إلى خطاب أيديولوجي متكامل يستند إلى مبررات سياسية واقتصادية وثقافية. وقد صاغ فلهم مار عام 1879 هذا المفهوم ليعبر عن تحول نوعي في طبيعة العداء لليهود، حيث تم تقديمهم بوصفهم "عرقاً" أو "عنصرًا" غير قابل للاندماج، وليس مجرد جماعة دينية مختلفة (Mosse, 1978).

وقد أدى هذا التحول إلى نقل العداء لليهود من المجال اللاهوتي إلى المجال الاجتماعي والسياسي، مما جعله أكثر رسوخاً وتأثيراً. ويشير (Arendt, 1973) إلى أنَّ معاداة السامية الحديثة كانت جزءاً من البنية الفكرية للحداثة، وليست مجرد بقايا من الماضي، إذ ارتبطت بصعود القوميات، وإعادة تعريف الانتماء، وتنامي التنافس الاقتصادي.

كما تعززت هذه الصورة من خلال تراكم مجموعة من التصورات النمطية التي ربطت اليهود بالممارسات الاقتصادية، مثل الربا والصيرفة، وهي ممارسات فرضتها عليهم القيود التاريخية، لكنّها تحولت إلى أساس لإنتاج صورة سلبية متجذرة في الوعي الجمعي الأوروبي (الروسان، 1983؛ السعدي، 1989؛ Mosse, 1978).

ولم تقتصر هذه التصورات على الجانب الاقتصادي، بل امتدت إلى المجال الثقافي والرمزي، حيث تم إنتاج خطاب أسطوري يصوّر اليهود كقوة خفية تسعى للسيطرة على العالم، كما في "بروتوكولات حكماء صهيون". وقد أسهم هذا الخطاب في ترسيخ صورة اليهودي بوصفه "الآخر المطلق"، الذي يجمع بين التهديد والخفاء، وهو ما عمّق من حالة الإقصاء (المسيري، 1999).

تفكك الهوية بين الانتماء الديني والانتماء القومي:

في ظل هذه التناقضات، دخلت الهوية اليهودية مرحلة من التفكك البنيوي، حيث لم تعد قادرة على الحفاظ على توازنها التقليدي، ولا على التكيف الكامل مع متطلبات الحداثة. فقد وجد اليهود أنفسهم بين نموذجين متعارضين: نموذج ديني تقليدي يقوم على الجماعة والانغلاق، ونموذج قومي حديث يقوم على الفرد والمواطنة (Bauman, 1991). وقد أدى هذا التناقض إلى نشوء الهوية المزدوجة، التي تعيش حالة من التوتر الدائم بين الانتماءين (Jenkins, 2008؛ الشامي، 1997)، حيث يشير الفاروقي (1988) إلى أنَّ هذا التوتر لم يكن مجرد اختلاف فكري، بل كان أزمة وجودية، حيث أصبح الفرد اليهودي غير قادر على تحديد موقعه داخل المجتمع: هل هو عضو في جماعة دينية، أم مواطن في دولة قومية؟ وهذا السؤال ظل مفتوحاً دون إجابة حاسمة. كما أسهمت القواعد الدينية في تعميق هذا التوتر، إذ استمرت في فرض نمط من الحياة يختلف عن السائد في المجتمعات الأوروبية، مما زاد من صعوبة الاندماج، وأبقى على مسافة بين اليهود وغيرهم (بدوي، دون تاريخ).

صدمة البوغروم وانهايار وهم الاندماج:

رافق أحداث العنف التي شهدتها روسيا في ثمانينيات القرن التاسع عشر أزمة الهوية في أعلى ذروتها، حيث تعرض اليهود لموجات من الاعتداءات المنظمة، عُرفت بالمذابح (البوغروم)، التي كشفت بشكل واضح حدود مشروع الاندماج (المسيري، 1999). وقد شكّلت هذه الأحداث صدمة عميقة لليهود، خاصة لأولئك الذين كانوا يؤمنون بإمكانية الاندماج، إذ أثبتت أنَّ الحصول على الحقوق القانونية لا يعني بالضرورة القبول الاجتماعي. ويشير جريس (1981) إلى أنَّ هذه الأحداث أدت إلى انهيار الثقة في مشروع التنوير، ودفع اليهود إلى إعادة التفكير في موقعهم داخل أوروبا.

من أزمة الهوية إلى إعادة تعريف الذات:

في مواجهة هذه الأزمة، بدأت تظهر استجابات متعددة داخل المجتمع اليهودي، تعكس حالة الانقسام الداخلي. فقد تمسك بعض اليهود بخيار الاندماج، بينما اتجه آخرون إلى البحث عن حلول بديلة، تقوم على إعادة تعريف الهوية. وقد مثل ليو بنسكر أحد أبرز منظري هذا الاتجاه، حيث دعا في كتابه "التحرر الذاتي" (1882) إلى ضرورة اعتماد اليهود على أنفسهم، واعتبر أنَّ الاضطهاد ليس ظاهرة عرضية، بل نتيجة طبيعية لوضعهم كأقلية مشتتة (جريس، 1981؛ الزغول، 1998). كما أسهم مفكرون آخرون، مثل سمولنسكين، في بلورة هذا التحول، من خلال التأكيد على أنَّ اليهود يشكلون أمة قائمة بذاتها، ودعوتهم إلى إحياء

اللغة العبرية، وهو ما يمثل انتقالاً من الهوية الدينية إلى الهوية القومية. وقد لعبت الهجرة دوراً مهماً في هذا التحول، حيث توجهت أعداد كبيرة من اليهود إلى الولايات المتحدة، في حين اختارت مجموعات أخرى الهجرة إلى فلسطين، في إطار محاولات أولية لإعادة بناء الجماعة خارج أوروبا (أبو عرفة، 1981؛ بابيه، 2007).

يتضح أنّ أزمة الهوية اليهودية لم تكن مجرد أزمة فكرية أو دينية، بل كانت نتيجة مباشرة لتحولات بنيوية عميقة في المجتمع الأوروبي، حيث أدى الانتقال من العزلة إلى المواطنة إلى إنتاج وضع أكثر تعقيداً، يقوم على التعايش بين الإدماج القانوني والإقصاء الاجتماعي. وقد كشفت هذه الأزمة حدود مشروع الحداثة الأوروبية، الذي لم يتمكن من استيعاب الجماعات التي لا تتسجم مع النموذج القومي السائد، مما دفع اليهود إلى البحث عن بدائل تعيد تعريف وجودهم في العالم. لذلك يمكن القول إنّ أزمة الهوية كانت نقطة التحول التي انتقلت فيها الجماعات اليهودية من إطارها التقليدي إلى البحث عن أفق سياسي جديد، وهو ما مهد لظهور الحركات السياسية الحديثة، بوصفها استجابة لأزمة بنيوية عميقة، وليس مجرد تطور تاريخي عابر.

نتائج البحث ومناقشتها:

أولاً: النتائج

أظهرت النتائج في البحث الحالي أنّ التحولات البنيوية التي شهدتها أوروبا منذ القرن الثامن عشر لم تؤدّ إلى إدماج الجماعات اليهودية بصورة مستقرة، بل أسهمت في إنتاج حالة مركبة من التوتر البنيوي، انعكست في نشوء أزمة هوية متعددة الأبعاد. وقد كشفت عملية التحليل التاريخي أنّ هذه الأزمة لم تكن نتيجة ظرفية أو عرضية، بل كانت حصيلة تفاعل ثلاث مراحل أساسية: العزلة البنيوية، والتحرر القانوني، وإعادة إنتاج الإقصاء في إطار الدولة القومية الحديثة.

أولاً: تبين من خلال التحليل التاريخي للتطورات والتحولات في أزمة الهوية أنّ الهوية اليهودية تشكلت في سياق العزلة داخل نظام الجيتو، حيث أسهمت هذه البنية في إنتاج هوية متماسكة قائمة على التمايز الديني والثقافي، مدعومة بمؤسسات داخلية حافظت على استمرارية الجماعة عبر الزمن. غير أنّ هذا التماسك كان مشروطاً باستمرار العزلة، مما جعله عرضة للاهتزاز عند زوال هذه البنية.

ثانياً: أظهرت النتائج أنّ التحرر القانوني، الذي جاء في سياق التنوير، لم يؤدّ إلى اندماج فعلي، بل كشف عن تناقض عميق بين المواطنة القانونية والإقصاء الاجتماعي. فقد تم الاعتراف باليهود كمواطنين، لكنهم ظلوا موضع شك ثقافي واجتماعي، وهو ما أدى إلى تفكيك الهوية التقليدية دون بناء بديل مستقر.

ثالثاً: بينت الدراسة أنّ صعود القوميات الأوروبية ومعاداة السامية الحديثة أعادا إنتاج الإقصاء في شكل جديد، أكثر تعقيداً، حيث لم يعد الاختلاف دينياً فقط، بل أصبح عرقياً وثقافياً، مما جعل الاندماج مستحيلاً حتى في حال التخلي عن الخصوصية الدينية.

رابعاً: كشفت النتائج عن أنّ هذه التناقضات أدت إلى تفكيك الهوية اليهودية إلى اتجاهات متعددة، تمثلت في الانقسام بين تيارات تدعو إلى الاندماج، وأخرى تتمسك بالهوية التقليدية، وإعادة تعريف الهوية في إطار قومي جديد. وفي المجمل، نرى أنّ أزمة الهوية لم تكن مجرد نتيجة لفشل الاندماج، بل كانت تعبيراً عن خلل بنيوي في العلاقة بين الدولة القومية الحديثة والجماعات ذات الخصوصية الثقافية.

وقد أظهرت دراسة كمّية حديثة أجراها بويكس (Boix, 2025) في مجلة American Political Science Review أنّ استجابة الجماعات اليهودية لهذا الإقصاء لم تكن موحدة، بل تباينت بحسب درجة التحرر السياسي الفعلي الذي حصلت عليه في كل دولة: ففي حين مالت الجماعات اليهودية في أوروبا الغربية وأمريكا الشمالية، حيث كان الاندماج القانوني أكثر اكتمالاً، إلى تبني الهوية الوطنية لبلدانها، اتجهت جماعات يهودية أوسع في أوروبا الشرقية، حيث ظل الإقصاء القانوني والاجتماعي قائماً، نحو المطالبة بهوية قومية يهودية منفصلة. وتقدّم هذه النتيجة كمّية سنداً إحصائياً معاصراً للأطروحة المركزية لهذه الدراسة، وهي أنّ استمرار الإقصاء رغم الإدماج القانوني هو الذي أنتج أزمة الهوية، لا العزلة أو الإقصاء بمفردهما.

التوصيات:

في ضوء نتائج الدراسة، يمكن تقديم مجموعة من التوصيات ذات البعد الأكاديمي والتحليلي:

1. ضرورة إعادة النظر في مفهوم الهوية بوصفه بناءً ديناميكياً، وليس معطى ثابتاً، مع التركيز على دور البنية الاجتماعية في تشكيله.
2. الدعوة إلى تطوير مقاربات تحليلية مقارنة، تدرس أزمات الهوية في سياقات مختلفة، للاستفادة من النموذج اليهودي في فهم تجارب أخرى.
3. التأكيد على أهمية التمييز بين الإدماج القانوني والاندماج الاجتماعي، حيث لا يكفي منح الحقوق لتحقيق القبول الفعلي.
4. دراسة العلاقة بين القومية والإقصاء، خاصة في سياق الدولة الحديثة، لفهم كيفية إنتاج "الآخر" داخل المجتمع.
5. توسيع الدراسات المستقبلية لتشمل الأبعاد النفسية والثقافية لأزمة الهوية، وليس فقط الأبعاد السياسية والتاريخية.

المراجع

- أبو عرفة، عبد الرحمن، *الاستيطان: التطبيق العملي للصهيونية: دراسة عن الاستيطان اليهودي في فلسطين خلال القرن الأخير*، (ط. 1)، وكالة أبو عرفة للصحافة والنشر، القدس، 1981.
- بابيه، إيلان، *التطهير العرقي في فلسطين*، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، 2007.
- بدوي، أحمد زكي، (د.ت)، *معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية*، مكتبة لبنان.
- بشارة، عزمي، *دراسات في المجتمع الإسرائيلي*، مركز دراسات المجتمع العربي، 1998.
- جريس، صبري، *تاريخ الصهيونية*، مركز الأبحاث، منظمة التحرير الفلسطينية، 1981.
- الروسان، ممدوح، *فلسطين والصهيونية (1882-1948)*، جامعة اليرموك، 1983.
- الزغول، ساطع، *التنظيمات الصهيونية والأحزاب الإسرائيلية*، مؤسسة البلسم، 1998.
- السعد، محمود، (د.ت)، *العداء للسامية ومعضلة اندماج اليهود في المجتمعات*.
- السعدي، غازي، *الأحزاب والحكم في إسرائيل*، دار الجليل، 1989.
- الشامي، رشاد عبد الله، *القوى الدينية في إسرائيل*، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1994.
- الشامي، رشاد عبد الله، *إشكالية الهوية في إسرائيل*، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1997.
- الشامي، رشاد عبد الله، *الرموز الدينية في اليهودية: المنوراه، نجمة داود، الطاليت، الصيصيت، المزوزاه، الشوفار، تابوت العهد، الختان*، مركز الدراسات الشرقية، جامعة القاهرة، القاهرة، 2000.
- شلبي، خيري، (د.ت)، *اليهود واليهودية في مرآة التاريخ: دراسة في أزمة الهوية والوضع الاجتماعي والقانوني*، دار الهلال، القاهرة.
- طربين، أحمد، (د.ت)، *محاضرات في تاريخ قضية فلسطين: منذ نشأة الحركة الصهيونية حتى نشوب الثورة الكبرى (1936)*، معهد الدراسات العربية العالية، جامعة الدول العربية، القاهرة.
- عبد الرحمن، أسعد، (د.ت)، *المنظمة الصهيونية العالمية: دراسة في الفكر النبوي وأزمة اندماج الجماعات اليهودية في أوروبا*، مركز الأبحاث، منظمة التحرير الفلسطينية، بيروت.
- الفاروقي، إسماعيل راجي، *الملل المعاصرة في الدين اليهودي*، مكتبة وهبة، 1988.
- كنعان، حبيب، *اليهود في المشرق العربي*، دار النهار للنشر، 1980.
- مظهر، سليمان، (د.ت)، *تاريخ اليهود وبنو إسرائيل: دراسة في الشخصية والوعي والشتات*، دار الكاتب العربي، القاهرة.
- المسييري، عبد الوهاب، *من هو اليهودي*، دار الشروق، 1968.

- المسيري، عبد الوهاب، *موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية: نموذج تفسيري جديد (المجلدات 1-8)*، دار الشروق، 1999.
- المسيري، عبد الوهاب، *الجماعات الوظيفية اليهودية: نموذج تفسيري جديد*، دار الشروق، 2002.
- المسيري، عبد الوهاب، *دراسات معرفية في الحداثة الغربية*، مكتبة الشروق الدولية، 2006.
- الوكيل، عبد الوهاب، (د.ت)، *اليهود واليهودية: دراسة في الجذور الدينية والتاريخية أزمة الهوية وقلق الاستقرار*، دار الفكر العربي، القاهرة.

References

- Anderson, B., *Imagined Communities: Reflections on the Origin and Spread of Nationalism*, Verso, 1983.
- Barth, F., *Ethnic Groups and Boundaries: The Social Organization of Culture Difference*, Oslo: Universitetsforlaget, 1969.
- Gellner, E., *Nations and Nationalism*, Cornell University Press, 1983.
- Arendt, H., *The Origins of Totalitarianism*, Houghton Mifflin Harcourt, 1973.
- Bauman, Z., *Modernity and the Holocaust*, Cornell University Press, 1989.
- Bauman, Z., *Modernity and Ambivalence*, Polity Press, 1991.
- Bauman, Z., *Liquid Modernity*, Polity Press, 2000.
- Bauman, Z., *Identity: Conversations with Benedetto Vecchi*, Polity Press, 2004.
- Berlin, I., *The Proper Study of Mankind: An Anthology of Essays*, Farrar, Straus and Giroux, 1998.
- Boix, C., “Political Emancipation and Modern Jewish National Identity”, *American Political Science Review (advance online publication)*, 2025.
- Cohen, M. R., *Under Crescent and Cross: The Jews in the Middle Ages*, Princeton University Press, 1994.
- Declaration of the Rights of Man and of the Citizen, *National Constituent Assembly of France*, 1789, [Primary source; official text].
- Dohm, C. W. von., *Concerning the Amelioration of the Civil Status of the Jews*, 1781.
- French National Assembly, *Loi relative aux Juifs*, [Decree admitting Jews to the rights of citizenship], 27 September 1791. [Primary source].
- Giddens, A., *Modernity and Self-Identity: Self and Society in the Late Modern Age*, Stanford University Press, 1991.
- Grobgeld, D., & Bursell, M., “Resisting assimilation – ethnic boundary maintenance among Jews in Sweden”, *Distinktion: Journal of Social Theory*, 22(2), 2021, p.171–191.

- Goitein, S. D., *A Mediterranean Society: The Jewish Communities of the Arab World as Portrayed in the Documents of the Cairo Geniza (Vol. 1)*, University of California Press, 1999.
- Hyman, P. E., *The Jews of Modern France*, University of California Press, 1998.
- Jenkins, R., *Social Identity (3rd ed.)*, Routledge, 2008.
- Katz, J., *Out of the Ghetto: The Social Background of Jewish Emancipation 1770-1870*, Harvard University Press, 1973.
- Lewis, B., *The Jews of Islam*, Princeton University Press, 1984.
- Menocal, M. R., *The Ornament of the World: How Muslims, Jews, and Christians Created a Culture of Tolerance in Medieval Spain*, Little, Brown and Company, 2002.
- Mosse, G. L., *Toward the Final Solution: A History of European Racism*, H. Fertig, 1978.
- Pinsker, L., *Auto-Emancipation*, 1882. (Selected English Translations).
- Morrow, J. D., *Order within Anarchy: The Laws of War as an International Institution*, Cambridge University Press, 2005.
- Smolenskin, P., *Am Olam* (The Eternal People). (Selected English Translations in Jewish Thought Anthologies), 1875.
- Sorkin, D., *Moses Mendelssohn and the Religious Enlightenment*, University of California Press, 1996.
- Sorkin, D., *Jewish Emancipation: A History Across Five Centuries*, Princeton University Press, 2019.